الفصل الثالث

جوانب أمين الريحانى

١ ـ آثاره

١ ـ موجز تاريخ الثورة الفرنسية ـ نيويورك ١٩٠٢ .

٢ ـ المحالفة الثلاثية ـ نيويورك ١٩٠٣ .

٣ ـ الريحانيات فى جزأين طبعة ثالثة ـ بيروت ١٩٥٦ .

٤ ـ زنبقة الغور طبعة ثانية ـ بيروت ١٩٦٢ .

٥ ـ خارج الحريم طبعة رابعة ـ بيروت ١٩٤٨ .

٦ ـ القوميّات فى جزأين ـ بيروت ١٩٥٦ .

٧ ـ النكبات طبعة ثانية ـ بيروت ١٩٤٨ .

٨ ـ وجوه شرقية وغربية طبعة أولى ـ بيروت ١٩٥٧ .

٩ ـ التطرف والإصلاح طبعة ثالثة ـ بيروت ١٩٥٠ .

١٠ـ هتاف الأودية ـ بيروت ١٩٥٥ .

١١ـ ملوك العرب فى جزأين طبعة ثالثة ١٩٥٦ .

١٢ـ تاريخ نجد الحديث طبعة ثانية .

١٣ـ فيصل الأول طبعة ثانية .

١٤ـ قلب العراق طبعة ثانية .

١٥ـ قلب لبنان طبعة ثانية .

١٦ـ رسائل أمين الريحانى .

١٧ـ المغرب الأقصى ـ دار المعارف بمصر .

١٨ـ وفاء الزمان ـ بيروت .

١٩ـ المكارى والكاهن ـ نيويورك ١٩٠٤ .

٢٠ـ رسائل أمين الريحانى .

التآليف الإنكليزية المطبوعة :

رباعيات أبي العلاء المعرى

The Quatrains of Abu'l-Ala — New York.

المرّ واللبان

Myrtle and Myrrh — Boston.

كتاب خالد

The Book of Khalid — New York.

اللزوميات

The Luzumiyat of Abu'l-Ala — New York.

تحدر البلشفية

The Descent of Bolshevism — Boston.

جادة الرؤيا

The Path of Vision — New York.

أنشودة الصوفيين

A Chant of Mystics — New York.

ابن سعود ونجد

Ibn Saoud of Arabia. His People and his Land — London.

وفي بوسطن تحت اسم :

The Maker of Modern Arabia — Boston.

حول الشواطئ العربية

Around the Coasts of Arabia — Boston.

بلاد اليمن

Arabian Peak and Desert. — Boston.

٢ ــ الأديب

إنّ من يطّلع على ما ترك أمين الريحانى من إنتاج أدبىّ وتاريخى وسياسى ، يرى نفسه أمام محصول ضخم ، جادت به قريحته المولّدة ، من أدب ، وعلم وتاريخ وشعر ورحلات ، وما إلى ذلك من الأبحاث المتنوّعة التى أثبتها فى كتبه المتعدّدة إنْ فى اللغة العربية أو الإنكليزية ، لا يلبث أن يدهش ويقول مع الأقدمين : « الأديب هو مَن أخذ من كلّ علم بطرف » فالأطراف التى استوعبها الريحانى متعدّدة متنوعة ، فلم يمرّ بها مرور الكرام ، بل غاص إلى الأعماق ، وسبر غورها ، فما وقع منها إلا على الدرّ والمرجان ، سواء فى ذلك التاريخ والرواية والمقالة والفلسفة والشعر ، وله فى كلّ ناحية من هذه النواحى باع طويل ، وفكرة عميقة ، تحمل القارئ على التفكير والبحث ، ولا عجب بذلك ، فقلمه مرهف ولوع بالتنقل وحبّ الاستطلاع ، فهو لا يحطّ على غصن من أغصان دوحة الأدب حتى ينتقل إلى آخر ، يرتاد مطلبًا إصلاحيًّا أو وطنيًّا أو قوميًّا أو اجتماعيًّا[1] ، فهو بريحانياته يتردّد بين المقالات والخطب الاجتماعية والفلسفية والصوفية والأدبية والانتقادية ، وكلها حافلة بالمبادئ القويمة التى ترمى إلى إصلاح شئون الناس عمومًا ، ونزع جذور التفرقة واستئصالها من بينهم ، وزرع بزور المحبّة والإخلاص فى القلوب وإليك ما قال : « أليس فى وسع المرء أن يعيش فى هذا العالم دون أن تطبع روحه بطابع الملّة وتصبغ بصبغة الطائفيّة ، ألا يقدر أن يكتسب ثقة إخوانه البشر دون أن يعلن تشيّعه ، ويفاخر بتعصبه ، ويكابر بغيرته الدينيّة مثلاً أو السياسيّة ، ألا يقدر أن يحبّ فئة من الناس دون أن يبغض سواها ، ألا يقدر أن يكون شريف الروح نزيهًا ، عفيف النفس أبيّها ، دون أن يحفر على صفحات قلبه أو على جبينه بأحرف كبيرة " أنا يهودى أو أنا مسلم ، أو أنا مسيحى " أليس فى وسعه أن يكون سعيداً محبًّا لامرأته وأولاده وأهله ، وبنى جنسه ، دون أن يعلّق فى ذيل ردائه أجراس الشيعة وجلاجل الملة كيما تبشر بقدومه حيثما توجّه ، وتبدّد بقرقعتها كلما تحرّك ذرّات

(١) راجع « المختارات » .

السكينة والسلام »[١] . ونتلمّس أدبه وسعة تفكيره من أبحاثه المتعدّدة منها أيضًا اللغوية والانتقادية ، فهو يرى أنّ رقّ اللغة لا يكون إلاّ بالخروج على السمج العقيم من مألوفها ، مع المحافظة على روحها ، وتأدية المعنى إلى ذهن السامع أو القارئ بأقلّ ما يكون من الكلفة أو التعب ومن قوله : « فالكلمات والتراكيب التى ألفتها الأذهان أو ألفت ما يماثلها حتى تستطيع فهمها ، بأقل ما يكون من الكلفة ، هى التى تروج عادةً ، وهذا لا يمنع رواج غيرها ، ولو كان جديداً غريبًا لأنّ بعض النفوس مولعة بحبّ الجديد الغريب»[٢] .

وإنى لأرى ولا ريب أنّ أدب الريحانى لا يعدو أن يكون فلسفةً ترتدى ثوب الأدب ، فأدبه منبثق من صميم الحياة بما فيها من جميل وبشع ، من خير وشرّ ، يعالج موضوعه بفكر ثاقب ومنطق صحيح ، يظهر العلّة ويقدّم العلاج ، وما علاجه غير المسالمة والمحبّة والتعاون والتصافى ، وإنصاف المظلوم ، وتأنيب الظالم ولست أرى وصفًا لأدبه أجمل ممّا وصفه به الأديب سعد الله عبود ، قال : « كاتب رشيق العبارة ، متين التركيب ، يطرب بأسلوبه كما يسكر بآرائه الفلسفية ، تعرب أشعاره عن عقلية سامية وروح رفيعة ، ورجحان قوّة الاستقرار ، ودقة شرح أسرار الحياة ، وما وراء الحياة ، إفرنجى الأسلوب ، عصرىّ الأفكار ، راقى الخيال والوصف والابتكار ، يبتكر بكتاباته وبلاغة تعبيره ، آراء وفلسفة اجتماعيّة ، خالعًا ثوب التقليد ، والجاهلية القديم ، ينظم الشعر الخيالىّ البليغ المؤثّر باللغة الإنكليزيّة والعربيّة »[٣] ، وفى هذا المعنى قال نجيب نسيم طراد : « فقد جمع بين البيان والشعر والفلسفة ، وتناولت أبحاثه مواضع النشوء والاجتماع ، وله فيها مسالك ونظريات جعلت له شخصيّة بارزة فى عالم الأدب العربى ومنزلة أشهر من أن تعرّف عند الإنكليز والأميركان[٤] » .

* * *

---

(١) « الريحانيات » ج ١ الطبعة الثالثة ص ٥٣ .

(٢) « المقتطف » ج ١ مجلد ٦٥ ص ٢٣٠ .

(٣) « الهلال » ج ٦ السنة ٣٠ ص ٥٦١ ، مصر .

(٤) مقدمة « التطرف والإصلاح » الطبعة الثالثة ص ٥ .

هذا ما رأيت فى أدب الريحانى ، وقد وقفت على كلّ ما كتب ودبّج ، ومن عرفه شخصيا عرف أنه يؤمن بما يكتب ويعتقد بما يخطب ويقول ، لا يؤارب ولا يراوغ ، ولا يتزلّف ، ومجمل أفكاره تنحصر بحكمته القائلة : « قل كلمتك وامشِ » . وبعد هذا ننتقل إلى ناحية أخرى وهى النقد .

٣ ــ الناقد

إذا شئنا أن نتعرّف إلى النقد النزيه ، الذى لا يعتوره مصانعة أو تدجيل ، فعلينا أن نرجع إلى كتابه « أدب وفنّ » فنقع على جملة صالحة ، من نقد الكتب والمقالات والقصائد ، وكلّها تنمّ عن روح طيبة ، وسعة اطلاع ، ومعرفة راسخة فهو لا يلقى الكلام على عواهنه ، كما أنّه لا ينظر إلى حجم الكتاب ، فلا يبهره ، ولا يدهشه سواء كان الكتاب صغيراً أم كبيراً ، وبذلك قال : « ولكنّ النفس إذا كانت كبيرة فى كتاب ما ، فذاك الكتاب ، وإن لم تتجاوز صفحاته العشرين ، يعدُّ كبيراً ، إذا كان فى كتابك فكر واحد عظيم ، أعطنيه فى صفحة واحدة ، صفح الله عنك ، وأرضى وأراح نفسك مما لا طائل تحته من الإسهاب »[1] .

ومن تصفّح كتابه « أدب وفنّ » يرى أنّه جرىء فى نقده صريح فى قوله : لا يتهيب من إبداء رأيه ، غير ملتفت إلى مَن قال ولو كان وجيهاً كبيراً أو كاتباً نحريراً أو شاعراً خنذيذاً ، بل إلى ما قيل ، نتبين ذلك من نقده لترجمة « الذكرى » وهى قصيدة للشاعر الإنكليزى تنيسون ، ترجمها شعراً إلى اللغة العربية أستاذنا الكبير أنيس الخورى المقدسى ، وبالقصيدة المترجمة قال : « ولكنّ الصداقة توجب الصدق ، والأدب يوجب الإخلاص ، فأشرت إلى بعض مواطن الضعف فى الترجمة ، علّك إذا رأيت الصواب فى قولى تتحاشى فى الطبعة الثانية المبتذل من القول الجامد من القوافى »[2] .

---

(١) « أدب وفن » الطبعة الأولى بيروت ص ٥٢ .

(٢) « أدب وفن » الطبعة الأولى بيروت ص ٥٤ .

وعلى هذا النمط من الصراحة يمضى فى نقد ما يُهدى إليه من الكتب أو الأبحاث ، ويرجو منه أصحابها أن ينظر فيها ويوافيهم برأيه ، فيقول بشأنها كلمته ويمشى ، غير ناظرٍ إلاّ إلى ما يراه صواباً ، فهو ولا ريب ناقد كبير واجتماعى وسياسىّ ، لا يهمّه غضَب المنقود أو رِضِى ، طالما هدفه الحقّ وتبيان الصواب ونبذ المزيّف المرذول .

وفى كتابه « أدب وفن » نقد لجملة صالحة من الكتب والخطب لا يسعنى عرضها . وهو فى مجمل نقده ، يرمى إلى العناية بالنقد المعنوى البيانى ، وتنقية الأفكار من خزعبلات المجاز ، وفساد المنطق ، بل من التشويش والتعقيد والإبهام . ومن المدح الذى لا ينطوى إلاّ على الكذب والنفاق والمجاملة ، وينقلنا البحث إلى ناحية أخرى هى :

٤ ــ المفكر

لا ريب أنّ مترجمنا الذى انقطع فى بدء نشأته إلى مطالعة شكسبير وتنسون ، وملتون ، وروسو وفولتير ، وغيرهم من كبار الفلاسفة والشعراء والمفكرين ، قد أثّروا فيه تأثيراً بيّناً ، وحملوه على التأمّل والنظر فى الحياة ، ليس من وجه واحد ، بل من وجوه مختلفة على تباين الأوضاع السياسيّة والأدبية والعلمية والدينية ، فى كلّ مقالة من مقالاته فى الريحانيّات والقوميات أفكار تدعو إلى التأمل والبحث ، ومشاركته فى ذلك الفكر الذى يلقى به فى وضح النهار على نور العقل والعبقرية ، وإليك ما قال من مقال عنوانه : « مناهج الحياة » قال : « لا يا صديقى ليست هذه النفس قطعة أرض أو سلعة لترهنها أو تبيعها ، ليس هذا العقل برميلاً من التفاح تتاجر به ، سِر فى طريق الحياة الأصيلة الرحبة ، واترك إن استطعت الشعَب المتعدّدة لأدلاّئها ، انزع عنك العلامات الصناعية ، ارفع عن رأسك الإعلانات الطائفيّة ، امح عن صفحات قلبك ما خطّهُ أجدادُك من كلام الغيرة والتعصّب ، نظّف يا أخى لوح النفس ،

نظّفه جيّداً ، وكن أنت الكاتب عليه ، لا سواك ، وانقش عليه هذه الكلمات الجميلة ، العذبة ، الحقيقة ، الحريّة ، المحبّة ، الاستقلال ، كن إنساناً صرفاً » (١) .

إنّ تحت كلّ كلمة من هذه الكلمات ، فكراً يدعو إلى الحياة الرغدة ، إلى الطمأنينة ، إلى السعادة التي ينشدها الإنسان ولمّا يظفر بها ، إلاّ إذا تخلّى عن أنانيته ومطامعه ، وتزلّفه وكبريائه . وما من شكّ من أن الطمع والأنانية وحبّ الظهور ، مدعاة إلى تشويه الحياة وتسويد صفحتها ، وقد نسب « فرويد » كلّ هذه إلى المحبّة الجنسيّة ، وقد يكون على حقّ ، لأنّ حبل الحياة بيد الأنثى ، فإما أن تقطعه وإمّا أن تمدّه سالماً إلى آخر العمر ، إن كانت على بينة من معنى الحياة .

ولست أزعم أنّ الأنثى هي كلّ شيء بل لا بدّ من أن يكون في صميم المرء دافع يدفع به إلى حبّ الرفعة والزعامة ، فيحتال على الزمن ، يراوغ ويداجي ويحابي ، ويدافع عن خطّة ما ، ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه ، وإذا ما وصل هدأ واطمأن ، ونسي من كان له عضداً ، ولا عجب بذلك ، فالإنسان مأخوذ من النسيان . وقد تبين لنا ممّا عرضناه ، أنّ المترجم له كان ضدّ المصانعة والمراوغة ، يريد الحياة صافية هنيئة ليس فيها مكر وكذب ونفاق وخداع . وأنّى له ذلك وما بُني على الفساد فهو فاسد ، ومردّ ذلك إلى التربية الأولى ، والطبيعة المتبدّلة ، المتغيرة ، المتلوّنة بكلّ لون من فصولها ، لا تمنح من انبثقوا من ترابها غير التلوّن والتذبذب ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

وأما الروح المنبثقة من العلوّ فإنّها تطلب الاستقامة والتفلت من هيولاها : لترجع إلى المكان الذي أخذت منه ، ولكنها ترغب في أن تكون مسالمة ، تحيا الحبّ ورموزه والشعر وكنوزه . وهنا يتقاضانا البحث أن نسأل هل كان الريحاني شاعراً ؟

---

(١) راجع « المختارات » .

٥ ـ الشاعر

قال ميخائيل نعيمه فى كتابه الغربال[١] : « لأمين الريحانى قلم ولوع بالاستكشاف والتنقّل ، لا ينزل بقعة من مَرج الأدب حتى ينزح عنها طالبًا سواها ، عرفناه بادئ بدء بمقالاته بين اجتماعيّة وسياسيّة وأدبيّة. ثمّ برواياته بين تمثيلية وغير تمثيلية ، ثمّ بأقاصيصه الصغيرة ، وكذلك ببعض شعره المنثور . واليوم نراه فى عالم الشعر المنظوم ، إنما الشعر الإنكليزى لا العربى ، فقد أتحفنا منذ أيام بمجموعة من نظمه بالإنكليزية دعاها « أنشودة الصوفيين» وقصائد سواها » . فما تقدّم نعلم أن شاعرية الريحانى لا تقتصر على اللغة العربيّة ، وإنما تتناول الإنكليزية . فهو فى الشعر العربى ناثر على طريقة شعراء الفرنجة المسمّى عندهم « بالشعر الحرّ » "Veres Libres" أو "Free Verse" أو الشعر الطليق وهو آخر ما اتّصل إليه الارتقاء الشعرى عند الإفرنج ، ولا سيّما الإنكليز والأميركان ؛ « فشكسبير » أطلق الشعر الإنكليزى من قيود القافية و « ولْت وتْمن » Walt Witman الأميركى ، أطلقه من قيود العروض أى الأوزان ، وقام الريحانى لينفح الأدب العربى بنفحة شعرية تخالف ما جاء به « الخليل بن أحمد » الذى قيّد الشعر العربىّ بقيود وسلاسل .

وما جاء به الريحانى من جديد ، اقتبله الأدباء ، وراحوا يترسّمون خطواته وينظمون على منواله[٢]. والريحانى فى ديوانه « هتاف الأودية » يقدّم لنا قصائد فيها فكر وفيها معنى ، وفى كلّ قصيدة من قصائده ، مجال للتفكير ، فهو لا يتركك بدون أن يبقى فى ذهنك أثراً كما نرى فى قصيدته « رماد ونجوم » قال :

---

(١) الغربال ، مصر ص ١٦١ .

(٢) أول من نظم على طريقة الريحانى الأديب منير الحسامى فأصدر ديوانه « عرش الحب والجمال » وكتب مقدمته الريحانى نفسه سنة ١٩٢٥ .

« تحت الرماد وفوق النجوم
ما لا يُرى من حياة تدوم
فضيلة تجرّ أذيال الفخر والتبجّح
فى أزقّة الرياء وأروقة الورع والقداسة
رذيلة تقضى حياتها فى ظلمات السكون والكتمان
وراء ستار الخمول والنسيان ،
كرهتْ الأولى نفسى وحنّ إلى الثانية فؤادى .

* * *

فى الصعلوك نفس تكبر إذا انطلقت من القيود والأغلال .
وفى الملك نفس تصغر إذا جرّدت من ترّهات الأبّهة والإجلال .
إلامَ نميل وجهنا عن الفقراء والأذلاّء
ونعفّره أمام الأغنياء والأمراء
احذروا من تكرهون ومن تحبّون
من تحتقرون ومن تجلّون
لعلّ علية القوم أدناهم
غداً تعرفون الحقّ فتعبدون
تحت الرماد وفوق النجوم
مَن لا يُرى من حياة تدوم » .

والشعر ، كما هو معلوم ، الكلام المتخيَّل ذو المعنى والمبنى الموقَّع على وزن فيه لحن سواء كان مقفّى أو غير مقفّى . والقافية الموحَّدة تبعث على الملل ، وتعافها الأذن ، والشيء إذا كثُر ابتذل ، وتعافه النفس . فالماء مع ضرورته للحياة فلا تتقوّم إلا به ، نراه مبتذلا يلقى على الأرض ، ويُتطهر به ، ويتبرد به أيام الحرّ ، ونقطة واحدة منه فى الصحراء توازى العالم وما فيه . ولتكن القافية ماءً فكثرتها مع ضرورتها للقصيدة يستغنى عنها ، فالتنوّع حسن وجميل ، والانتقال من نغمة إلى أخرى تريح النفس وتسرّ الأذن ، ولولا تنوّع الألحان ، لما استساغت

الأذن الغناء ، والنغم على وتيرة واحدة ، وتوقيع واحد ، يبعث على الملل والسأم[١] . والشعر على شرف مقامه ، لا يتأتّى إلا للنفوس الواعية الموهوبة ، تتلقى رؤى الأحلام من سماء الخيال ، فتلقى به على الأرض ، أنشودة حبّ ونشوة فرح ، فيها النغمة والوزن ، والتشابيه والاستعارات ، والكنايات كما هو وارد فى « هتاف الأودية » ، قال المرحوم ما رون عبود : « الريحانى أبو الشعر المنثور فى الأدب العربى وهو الذى مهّد الطريق لجبران وعبّدها ، ولكن جبران طار بهذا الأسلوب على أجنحة رياح الفنّ والإلهام ، ولم يقع إلاّ على الندى »[٢] .

فالريحانى وإن خالف العروض فله أسوة بالموشحات الأندلسيّة التى استساغها الأدب العربى ، ودخلت بصلبه ، ومثلها يكون شأن الشعر الطليق ، شرط انتخاب الألفاظ ، وجودة اللحن ، وحسن السبك ، وجمال المعنى والمبنى .

ومن ظنّ أن رصف الكلمات ووضع نقاط وفواصل ، هو الشعر الطليق ، فقد أخطأ المرمى ، وكبا به جواده ، ووقف حظّه فى الأرض المعزاء ، و « من سلك الجدَدَ أمِن العثار » .

٦ ـ المورّخ

للريحانىّ أسلوب خاصّ بكتابة التاريخ عرف به ، فهو لا يسرد وقائع جافّة ، وإنما يعقد لنا بحثًا يضمّنه التاريخ بقلم مرهف وبيان جلىّ ، يستهوينا بلباقته ، فلا يدعنا نترك الكتاب بدون استكمال قراءته ، ولا نخرج منه إلاّ وفى ذهننا تفاعل ، ينقلنا على أجنحة الزمن إلى الماضى ثم يمشى بنا إلى الحاضر ، ويتكهّن بما سيكون ، وكلّ ما فكّر به قد وقع بعضه ، كالجلاء عن سوريا ولبنان ، وانقسام زعماء العرب وتباعدهم ، كل ذلك نلمسه فى كتبه ، ولا سيّما فى كتابه « ملوك العرب » .

---

(١) راجع كتابنا « شعراء القصة والوصف فى لبنان » بيروت ص ٢٠ .

(٢) سلسلة « اقرأ » دار المعارف ، مصر عدد ١٣١ ص ٥٤ .

وأعزُّ أمنية كانت عنده هى أن يرى ملوك العرب والأمراء والشيوخ ، متآخين متحابين ، يعملون يداً واحدة على رفع شأن العرب ، وكان يرى أن الذى أمات فيهم حبّ النهوض ، وأوقعهم فى بؤرة التأخّر واللحاق بركب الحضارة هو تمسك أولئك الزعماء الكبار بالزعامة واستئثارهم بالسلطة ، وتركهم الرعيَّة تقاسى شظف العيش والجهل .

إن الريحانى قد كتب ما كتب بدافع الإخلاص والحب لأنَّه عربى ويحبّ العرب ، ويتمنى لهم الخير والفلاح ، ولكم سمعناه يقول : « لا بدَّ من يوم كامن فى ضمير الزمن سيفتر مبسمه فتتصافى فيه القلوب ، ويعمل كلّ فى حقله ، فيرتفع شأن العرب ، ويبسم لهم الزمن » .

ونحن نقول ستردّد الأيام قائلة : رحم الله أمين الريحانى ، معبّد الطريق وباعث المودَّة والصفاء فى القلوب المتناحرة ، فلا تنابذ ولا حسد ، بل حبّ ووفاق وإخلاص . بين زعماء العرب وإنه لقريب .

٧ ــ الرَّحّالة

كانت الرحلات قديمًا تقوم على أساس دينى أو تجارى أو سياسىّ أو علمىّ .

١ ــ فحج بيت الله الحرام : حبَّب إلى ابن بطوطة وابن جبير الرحلات .

٢ ــ التجارة : حبَّبت إلى التاجر سليمان أن يقصد بلاد الصين بحراً .

٣ ــ السياسة : حبَّبت إلى ابن خرداذبة واليعقوبى وقدامة ، والباخى وابن حوقل ، الرحلات لخدمة الخلفاء والأمراء .

٤ ــ العلم : حبَّبَ إلى المسعودى وأبى الريحان البيرونى وأبى عبيد البكرى الأندلسى والإدريسى وغيرهم كياقوت الرومى .

وكانت عند الإفرنج بقصد الاستكشاف والبحث عن طبيعة الأرض وما فيها من المعادن ، فزيارتهم للجزيرة العربية كانت علمية سياسية أمثال « بلغراف »

وترجمانه « بركات » الذى ارتقى إلى السدّة البطريركيّة الملكية الكاثوليكية باسم « بطرس الجريجيرى » و « بركارت » و « برتن » و « تشارلس دوطى » الذى انتحل اسم خليل وغيرهم كثر .

وأما رحالتنا « أمين الريحانى » فقد كانت رحلته غير دينية وغير تجارية أو اختبارية للأرض وما فيها وإنما كانت رحلة شغف بالعرب وملوك العرب وأمرائهم ، وقصده أن يوحّد القلوب ، ويجمع بينها لا حبًّا لهم فقط بل حبًّا لتلك الأمة المظلومة التى تلاعبت بها أهواء السياسة فغرّقتهم ، وجعلت العداء بين الأخ وأخيه والجار وجاره . ومَن يقرأ كتاب « ملوك العرب » بجزأيه يعلم أن الريحانى ما قام برحلته إلى شبه الجزيرة العربية ، إلاّ لما كان يشعر به من توق شديد إلى مواطئ أقدام الجدود القدامى . والتقرّب من الملوك ليحملهم على الحب والتآخى ويوحّد القلوب لرفعة العرب والنهوض بهم إلى مراقى الحضارة . فقد زار المغفور له الملك « حسين » ملك الحجاز والإمام يحيى فى اليمن وابن الرشيد وابن السعود وغيرهم .

ووصف لنا شبه الجزيرة وصفًا مسهبًا ، طبيعيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وتاريخيًّا وحدّثنا عن غايته التى كان يرمى إليها . وهى إزالة التحارب والعداوة والشقاق من بين الزعماء ، وإعلامهم أن عملهم الذى يقومون به هو مضرّة لأنفسهم ولرعيتهم ، وتسهيل السبيل للمستعمر الطامع والمستغلّ الجائر ، فينشب أظافره القويّة فى بلادٍ كان عليها أن تكون فى مقدّمة البلدان ، لما لها من ماضٍ مجيد ، وذكر قديم حميد .وما فى أرضها من مكنون المعادن ، وغيرها من جامد وسائل .

٨ ـ الخطيب

عرّفت كتب الأدب الخطابة ، بأنها كلام نفسى ؛ موجّه نحو الغير للإفهام[١] وفى اصطلاح الحكماء هى : صناعة تتكلف الإقناع الممكن فى كلّ مقولة من المقولات .

والمقولات عشر : هى الأقوال التى تعرّف الشىء فى ذاته وأحواله ، وهى جوهر الشىء ، وكميته ، وكيفيته ، ونسبته إلى غيره ، وفعله وانفعاله ، وزمانه ، ومكانه ، وهيئته ، ووصفه ، والخطابة تعمها كلها[٢] .

وليس للخطابة موضوع خاصّ تبحث عنه بمعزل عن غيره ، فهى تتناول كلّ العلوم والفنون ، ولا شىء حقيراً كان أو جليلاً ، معقولا أو محسوساً ، إلاّ يدخل تحت حكمها ، ويخضع لسلطان لسانها ، ومن ثمّ يترتب على الخطيب أن يكون له إلمام بكلّ صنف من المعارف ، واسع الاطلاع على كلّ ما يختصّ بالأدب والعلوم والتاريخ وما إلى ذلك .

واشترطوا بالخطيب أن يكون جسوراً ، فصيح اللسان ، جهورى الصوت ، حادّ النظرات ، رابط الجأش ، ومن عرف الريحانى عن كثب رأى فيه هذه الصفات ، فقد كان على جانب من سعة الاطلاع فصيح اللسان ، صادق القول ، جسوراً ، جريئاً صريحاً ، لا تأخذه بالحقّ لومة لائم ، فلا يخشى ملكاً أو أميراً . يصرّح بأفكاره عن علم عميق ومعرفة صحيحة ، يقدّم لكلامه بمقدمات واضحة بيّنة ، ويخرج بنتائج مقنعة ، يستميل بكلامه السامع ، ويحرّك عواطفه بأسلوبه الخطابى ، فيه شىء من التهكم البرىء والظرف[٣] ، وله وقفات مشرّفة فى الأندية الأدبيّة ، والجمعيات على اختلاف مذاهبها فى جميع الأقطار العربية . والريحانيات والقوميات ، غاصّة بخطبه الأدبية والعلمية ، التى تثير

---

(١) كليات أبى البقاء .
(٢) « علم الأدب » ج ٢ للأب شيخو بيروت ص ٤ .
(٣) راجع المختارات .

حماسة السامعين ، فقد عالج أمراض الشرق ، فحمل على الجهل والتعصب والظلم والاستبداد ، وحثَّ على جمع الكلمة ، ورغب إلى العرب عمومًا أن يرفعوا راية الحبّ والإخاء بينهم ، وينهضوا إلى معارج الرقّ والفلاح ، ولسان حاله يردّد مع الشاعر المرحوم فؤاد باشا الخطيب :

بالله يا شبه الجزيرة فاسمعي ... ما شئت من شجوى ومن إنشادى
أنا لا أفرّق بين أهلك إنهم ... أهلى أنتِ بلادهم وبلادى

٩ – الريحانى والدين

لقد حمل عليه غير واحد ، واتّهموه بالكفر والإلحاد ، لأنه خالف بعض مبادئهم التى لم يستسغها ، وإن كانت فى نظرهم حقًّا . على أنَّ الناظر فى كتبه لا يلمح شيئًا ممّا اتّهم به ، بل يرى المحبة الصادقة والإيمان الصافى بالله ، وهو من الذين يرغبون عن الأساطير والأقوال التى لا تستند إلى العقل . فدينه مبنىّ على الحبّ والمسامحة وعلى التحدث بنعمة الله .

كان معجبًا بمخلوقات العزَّة الصمدانية وعجائبها ومن أقواله : « إن فى ورقة من أوراق التوت سرًّا لا يكشفه إلا اللاهوت ، إلى الوادى إذاً ، هناك بين أشجار البطم ، والزمزريق ، وتحت أدواح الصنوبر والسنديان ، أشيّد هيكل الإيمان ، أرانى هناك فى بيتى ، فى بيت الطبيعة ، بل فى بيت الله ، فى ظل القويسة والغار ، وبين الصعتر والوزّال والخنشار ، وبالقرب من ضحضاح يشف عن نباتات حيَّة تحت الماء ، وفوق النهر الجارى ، تحت قدمى هذا الوادى الرهيب ، أبنى لك أيتها النفس هيكلا من الإيمان ، يؤمه فى المستقبل البعيد من إخوانى والقريب . بل أقيم فيه تمثالا للوداد والإخاء ، وأدعو إليه كلّ بشر تحت السماء » . فى صلاته « النجوى »[1] . ما يملى علينا تديّنه وإيمانه الصادق بالله الواحد الأحد .

---

(١) انظر المختارات .

وكأنى به كان يقول : أليس الله محبة ، ومَن أحبَّ الله ، أحبَّ خلقه ، غير متعصب لملَّة أو مذهب ، وهو يرى أن التساهل هو الاعتبار والاحترام الواجب علينا إظهارهما نحو المذاهب المتمسك بها آخرون من أبناء جنسنا ، ولو كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا ، والدين عنده لا يكون سبباً للخصام والشقاق والقتال ، بل هو الحب المتبادل بين طبقات الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها وكأنه كان يردّد بسره مع ابن العربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلاً كلّ صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومُصحف قرآن
أدينُ بدين الحبّ أنّى توجّهت ... ركائبه فالحبُّ دينى وإيمانى

وعلى الجملة فالدين عنده ينحصر فى المحبَّة الشاملة الكاملة والإيمان بالله[1] ، لأن بالمحبة تحلّ المشاكل كلها ، فلا بغض ولا حسد ، ولا تنابذ ، ولا حقد ، والإنسانية عنده وحدة قوامها الخالق سبحانه ، وهو يقرّ بالبعث والنشور كما يؤخذ من بعض شعره المنثور قال :

« على أبواب الجنَّة تنتظر الأرواح أحبابها ،
بل تنتظر الأحباب أرواحها ،
آه على المحبين المودّعين الراحلين » .

وعلى الجملة فدين الريحانى كما رأينا هو دين الصدق والاستقامة والأمانة ، والابتعاد عن الكذب والمراوغة والمصانعة ، ومَن آمن بالمحبَّة آمن بالله ودان بدين الإنسانية السامى ، وهو المحبة ، والمحبة أولاً وآخراً .

---

(١) « قلب لبنان » الطبعة الثانية ص ١١ .

بعد مرور ربع قرن

هذا هو أمين الريحانى ، قد عرضت ما تيسّر لى الاطلاع عليه من نفثات تفكيره ومعارفه ، ولمست ما كان يحويه قلبه الكبير من حبّ لأمته وللإنسانية جمعاء ، وقد قيل عنه : « إنه كان يحشد فى شخصيته الفذّة وأدبه المكتنز فنونًا من الإبداع وقيمًا جمالية وفكرية ، ترفعه إلى مستوى الطليعة الأخيار الذين مثلوا الإشعاع اللبنانى بأصفى بهائه ، وأسمى عطائه»[١] .

وهذا ما دعا مجلس المتن الشمالى للثقافة — لبنان — أن يحيي ذكرى النابغة « الريحانى » بعد مرور ربع قرن على وفاته ، فاستحضر إلى المهرجان الكبير الذى أقيم من ٢٤ — ٣٠ تشرين الأوّل « أكتوبر » سنة ١٩٦٥ نخبة العلماء وأساطين الأدب من مستشرقين وأدباء شرقيين وغربيين ، فألقى كلّ منهم كلمة تليق بعلم مترجمنا ومعارفه ، وهأنذا أقدّم مائدة شهية من مختار أقوالهم تكون مسك ختام لدراستنا هذه وإليك ما قالوا :

المختار من كلمة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية شارل حلو : « إذا غلا الدّين ولم تسعف الطاقة على الإيفاء ، كان التخليد أقدس الواجب وأقلّ الجزاء .

ووراء المناداة التى جمعت اليوم اللبنانيين والعرب إخوانًا لهم أوفياء ، وحملتهم على إحياء ذكرى أحد عباقرة لبنان الأفذاذ ، بعد مرور خمسة وعشرين عامًا على وفاته ، يكمن إعجاب مشترك بنبوغ أمين الريحانى ، وتقدير كبير للخدمات الجلّى التى أدّاها لوطنه لبنان وللعرب وللفكر العالمى»[٢] .

المختار من كلمة رئيس مجلس المتن الثقافى الأستاذ يوسف غصوب :

« ما كان ليبالى فى جهاده إلاّ بما يراه ويعتقده خيراً لمواطنيه وللإنسانية . لا يصغى ، فى كل ما يقول ويفعل ، إلاّ لصوت ضميره ووجدانه وصوت دمه

---

(١) « أمين الريحانى بعد مرور ربع قرن » ص ١٩ .

(٢) « أمين الريحانى بعد مرور ربع قرن » ص ٢٧ .

اللبنانى العريق . ما كان متهوساً مندفعاً بمجرّد العاطفة والنزق ولا متهجّماً على القضايا تهجماً دون ما تروّ ولا وعى ، بل كان منذ مطلع شبابه يشعر بالمسئولية العظيمة التى أخذ على نفسه الاطلاع بها للقيام على أحسن وجه ، برسالة أوحى بها إليه قلبه وعقله فراح يتأهب لها بعلم صحيح واطلاع واسع فى جميع الحقول الثقافية ، لا سيما تاريخ العرب وآدابهم»[١] .

من كلمة مندوب الاتحاد السوفياتى ألقاها بالروسية الأستاذ ڤيتالى أوزروف :

« إنه لشرف عظيم لنا ، نحن الأدباء السوڤيات أن نجد أنفسنا بين المدعوين إلى هذا الحفل المقام لتكريم ذكرى المفكر والأديب اللبنانى الكبير أمين الريحانى ولدى كل كاتب كبير قلب كبير واسع .

وهكذا كان قلب أمين الريحانى : قلباً كبيراً واسعاً ، لأنه قلب إنسان ذى أصالة وعبقرية وموهبة»[٢] .

من كلمة مندوب أسبانيا الدكتور بدرو مرتينز مونتا ڤيز :

« قد جئت من فردوس الأندلس ، إلى وطنكم هذا العتيق ، مهد الحضارات والأساطير ، لكى أكرم ابناً من أكابر أبنائكم ، دافع عن الحرية والتفاهم بين البلدان والأشخاص ، لكى أكرم أمين الريحانى»[٣] .

من كلمة مندوب إيطاليا الدكتور أمبرتو ريزيتانو :

« يا أمين الريحانى !

يا لها من ساعة سعيدة لحضورى فى موطنك واشاركك فى الاحتفال بذكراك اليوم ، بذكرى رجل نعتبره ، نحن المستشرقين — كما يعتبره المهتمون بالتاريخ المعاصر للشرق الأدنى — برهاناً من براهين القومية العربية وداعياً من دعاة الوحدة العربية ، وممثلا من ألمع ممثلى العروبة»[٤] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١ — ٣٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ص ٣٧ — ٣٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٤٠ .

من كلمة مندوب المملكة المتحدة « بريطانيا » ألقاها بالإنكليزية الأستاذ ج . سبنسر تربينغهام :

But he was not only concered with tolerance and religious liberty within his own Church, I see him too among the ploneers of the quest for a dialogue between Christianity and Islam, the need for deeper mutnal understanding between Muslims and Christians, a realization of our common quest far truth. So he enjoyed translating Abu'l-Ala". Now, mosques and churches - even a ka'ba stone, Qur'ans and Bibles - even a martyr's bone,All these and more my heart can tolerate For my religion's love and love alone."

من كلمة مندوب تشكوسلوفاكيا الأستاذ شفتوزار بانتوتشك : « وإنه لمن دواعي سروري أن وقع اختيار مجمع العلوم التشيكوسلوفاكي ومعهد الدراسات الشرقية علىّ لأمثّل الجمهورية التشيكوسلوفاكية في هذا الاحتفال، وأقدم لكم أسمى التحيات القلبية نيابة عن المستشرقين التشيكوسلوفاكيين .

ولأول مرة في تاريخ الاستشراق التشيكوسلوفاكي ، يدعى أحد منا إلى بلد عربي لحضور مثل هذه الحفلة الأدبية المهمة ، . . . وإذا كانت هذه أوّل فرصة بالنسبة لي ، فسوف أضع نفسي في صف المتأملين في أدب الريحاني والمعجبين بنتاجه الفكري الثمين»[٢] .

من كلمة مندوب الجمهورية الفرنسية الأب ميشال الأر : « لنأخذ مثلا ما كتب أمين الريحاني ضد الديانة . . . في نظر معاصريه اللبنانيين ، وفي نظر الأب شيخو ، ليس ذلك إلاّ طعنًا في الأشياء المقدّسة ينتج عن قلة إيمانه ، وابتعاد عن الله جلّ جلاله ، أمّا إذا تأملنا أقوال الريحاني في ضوء المحيط الذي عاش فيه في الولايات المتحدة ، والحرية الدينية التي عرفها هناك ، فنفهم أنّ حملة الريحاني ليست على الدين الصحيح ، إنّما هي على التعصب الديني الذي كان يسود آنذاك في الشرق»[٣] .

---

(١) « أمين الريحاني بعد مرور ربع قرن » ص ٤٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٠ .

من كلمة مندوب الجامعة الأميركية فى القاهرة الدكتور منح خورى :

« عاش الريحانى قلبًا خصيبًا وفكراً مستنيراً ، وروحًا ثوريًّا ، يعبّ من المبادئ الخيرة التى قام عليها المجتمع الأميركى ، ويساهم مساهمة العبقرى بتقريب التراث من التراث ، وإغناء الحضارة الإنسانية ، وضاءة ورحابة وشمولا »[١] .

من كلمة مندوب الجامعة اللبنانية فى العالم . المحامى الأستاذ عادل حاطوم :

« كان أديبًا فى رجل دولة ، على نفوره من السياسة التقليدية ، يحدّث الرأى العام ، دقيقًا فى ملاحظته ، بارعًا فى استنتاجه ، لبقًا فى تصويره .

آفاق تفكيره لا تنحصر أمام ضيق الحدود ، وميدان عمله فسيح رحب ، لا يعرف الحواجز والسدود .

خاطب الإنسان بشتى الطرق والفنون : بالمقالة ، بالخطابة ، بالمسرحية بالقصة ، بالشعر ، بأدب الرحلة ، بالرسم . . . حافزاً إيّاه على التحرّر من الجهل والخوف والذل »[٢] .

من كلمة مندوب المملكة العربية السعودية ، الشيخ عبد الله الملحوق :

« ولقد نشأت بين المغفور له جلالة الملك عبد العزيز وأمين الريحانى ، فقيد العربية الكبير الذى نحتفل اليوم بذكراه ، مودّة كان أحبّها إلى القلب واللسان أدناها إلى الصراحة والحقيقة فتصافح فاتح الرياض وفيلسوف لبنان ، وتلاقى الفارس الذى قهر الصحراء وزلزل زلزالها تحت سنابك خيله ، وقرب أبعادها بسنان رمحه ، وجمع قبائلها بحكمته وحلمه وعدله وأناته التى ذهبت مثلا فى أخلاق الملوك . . . تلاقى ذلك العربى العملاق مع أخيه اللبنانى الذى طيبت أنفاسه ريح الحضارة ، وأذكت شرارة عينيه جذوة من شمائل العبقرية »[٣] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٢ — ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٨ — ٥٩ .

من كلمة مندوب الجمهورية العربية السورية ، الأستاذ فؤاد الشايب :

« حياة الريحانى ، بالفكر وبالعمل ، رؤية الحقيقة من عَلُ ، اكتشاف للواقع من حالق الذرى التى بلغها بتأمله ، وبقوة جناحه وصوفية هواه . فهو كابن ذروة نسر تدانت له مشاهد الحياة والبيئة . فعرفها وملكها وعقد عندها يقينه وعزمه . وهو كابن شاطئ ، شراع جرىء غلاّب ، بوصلته فى غريزة جناحه ، لتهتدى به المراكب الكبيرة ، والعمالقة السابحة فى بحر الظلام .

لقد رأى الكثير مما كان أهل زمانه يرونه سراباً واختلاطاً ، ودياجير أخذ بعضها بأطراف بعض . فكان له فى ميادين الرجال سبقان : الأول أنه رأى ، والثانى أنه لم ينكر ما رآه ، فهو ليس بصاحب معرفة فحسب . وما أكثر من يتنكرون لما يعرفون ، بل هو صاحب مدرسة رائدة فى تعريف ما يعرف ، وإعلان ما يضمر ، وقصف مواقع الجهل والظلام »[1] .

من كلمة مندوب العراق ، الأستاذ طه الداود :

« خدم المفكّر والمناضل والأديب والفيلسوف أمين الريحانى القضية العربية على أراضيها ، وفى الأراضى الغربية ، فهو من أول الداعين إلى وحدة عربية ، وتفاهم عربى ، يقرب ما بين الشعب الواحد فى مختلف أجزائه ، وهو كذلك من أول الداعين إلى نهضة عربية متطورة اجتماعياً وسياسياً »[2] .

من كلمة مندوب منظمة التحرير الفلسطينية ، الأستاذ أحمد سعيد محمدية :

« إن أمين الريحانى بالنسبة لأبناء فلسطين هو القدوة التى ينبغى لرجال الفكر والأدب أن يتمثلوا بها ، ذلك أنه كان يغمس قلبه وعقله فى تربة الواقع العربى . . . ولم يكن ضباباً يجعل الأدب قالباً فكرياً لا حياة فيه ، أو مهنة للترف العقلى »[3] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ — ٦٩

(٣) المصدر نفسه ص ٧٠ — ٧١ .

من كلمة مندوب المملكة العربية الهاشمية ، الأستاذ عبد الحليم عباس :
« كان الريحانى ، رحمه الله ، يرى أن الأدب ، قبل أن يتجسّد كلمة يجب أن يتجسّد خلقاً رفيعاً ، وذوقاً سليماً ، وقصداً قويماً . هكذا حدّده فى ريحانياته ، وفيما أعطانا من بذور زرعت ونمت وأتت خير أزهارها وأثمارها فى الأدب العربى»[١] .

من كلمة مندوب الجمهورية اليمنية ، الأستاذ عبد الرحمن مجاهد : « إن فكر الريحانى يشكل جزءاً من ثقافة كلّ مثقف عربى ، ويكفيه فخراً أنه من الرواد الأوائل الذين فتحوا النوافذ على الشرق والغرب ، ليطل منها الإنسان العربى على ما حوله ومن حوله فى هذا العالم ، يكفيه فخراً أنه فتح نافذة واسعة أمام الإنسان العربى ليطل منها على مهد العروبة جنوبها وشمالها مشرقها ومغربها .

إنّ الريحانى جدير بأن يقام له تمثال فى أرض الجزيرة العربية ، لأنه أول مفكر عربى زارها وسجل ما فيها بأمانة وعمق»[٢] .

إلى هنا يحطّ بنا المطاف بعد أن نقلت بعض نفثات الخطباء فى مهرجان مترجمنا ، ومن هذه الروائع نعلم مكانة الريحانى فى الشرق والغرب ، وقد سامر الملوك والأمراء والسلاطين وخاطبهم مخاطبة صديق مخلص محبّ لوطنه وأمته العربية التى كان يفاخر بها وبأمجادها ، ويدعو إلى لَمّ شملها وتوحيد كلمتها ، والنهوض بها إلى مراقى الرفعة والحضارة الإنسانية .

إن مترجمنا ، وإن عرض فى بعض كتاباته إلى ما كان للعرب من مجدٍ تليد وعزّة وسلطان مترامى الأطراف ، لم يسكره ذلك التراث الخالد ولم يحمله على الاستكانة والتغنى به ، بل بعث به قوة ونشاطاً إلى إحياء تلك العصور الذهبية التى كانت للأمة العربية فى مشرق الأرض ومغاربها من المحيط إلى ما وراء الخليج ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٧٩ – ٨٠ .

إلى الأندلس الزاهرة بخلفائها قبل الانحلال وبأدبائها ، وفلاسفتها ومفكّريها ، وإلى هذا الإحياء نذر لسانه وقلمه.

إن أمنيته التى كان يحلم بها ويسعى إليها جهده ، هو توحيد كلمة العرب ؛ من أجل ذلك جاب الصحراء العربية ومرافقه صديقه الحميم المرحوم الشيخ قسطنطين يني فى بعض رحلاته ، فاتصل بالملوك والسلاطين والأمراء والشيوخ ، ونشر بينهم روح المحبة ، روح الأخوة ، روح النهضة ، روح العلم النظرى والعملى ، روح التضافر والتكاتف والتآخى على صعيد العروبة الموحدة الكلمة . إلا أنّ صرخاته المخلصة المدوية لم تذهب فى واد بل تجاوزت الزعماء إلى قلوب أبناء الأمة العربية جمعاء ، وبعثت فى أفئدتهم قوّة للتحرر والاستقلال والتطلع إلى عين الشمس برءوس شامخة وقلوب نابضة متغلتة من قيود الذلّ والخنوع ، وما زالت الأجيال الطالعة تقرأ الريحانى ، وتستوعب مبادئه وصرخاته الإصلاحية القائمة على الفكر الناضج والإيمان الوثيق بوحدة العرب والحبّ الأكيد ، ليس للعرب حسب بل للإنسانية المتحرّرة التى تقدّس الحقّ بضمير صالح ؛ وللتدليل على ذلك لا بدّ لى من أن أنقل بعض مقاطع جاءت فى محاضرات الأدباء والمفكرين فى مهرجانه .

قال الأستاذ باسم الجسر :

« هذا الشاعر والكاتب والرحالة والخطيب والمحاضر ، والدبلوماسى والصحفى المغامر .

أى إنسان كان فى الحقيقة ؟ ! .

ثائراً كان ؟ أم فيلسوفاً عصرياً ؟ أم مجرد عقل نير رشخصيه مشعة أم صحفياً يهوى المغامرة ؟ ! .

بما كان أمين الريحانى هذا وذاك فى آن واحد .

وربما كان يريد – كما قال – أن تشعّ حياته لا أن تفرقع ، أن تكون كأحد الكواكب السماوية لا كأحد الأسهم النارية»[١] .

وإليك ما قال الدكتور بشير العريضى :

« إن إرادته بنت نفسه الأبية وعقله الفياض الوماض، وقد أبت عليه إلا أن يكون حرًّا، واعيًا للحرية ، حربًا شعواء على الظلم والظالمين دولاً كانوا أم أفراداً . وقد آمن بكرامة الإنسان وحقه وتقرير مصيره .

إن تنديده بالظلم شغل معظم تفكيره»[٢] .

ومن نفثات الأستاذ الأديب رئيف خورى :

« كان هذا الطموح ، اللجوج فى طموحه إلى الخير لقومه ، والإنسانية ، زاهداً فى المغنم الشخصى ، وكان هذا الموتر النفس الرامى عن قوسه بأرشق السهام وأمضاها فى صدر الظالمين والمدجلين والخانعين والجامدين يجتهد أن لا يكون توتره قلقًا ضائعًا ، مائعًا بل قلقاً هادفًا مركزاً يستند إلى سلامة واطمئنان عميقين فى باطن النفس[٣]» .

وهذا رأى الدكتور كمال الحاج قال :

« لنواكب الريحانى فى غدواته الاستطلاعية حول دنيوات الأنا . لقد اكتشف أمين بمجاهر التحليل أن شخصيته مركبة من شخصيات كثيرة . متعدّدة الألوان والأنوار ، مختلفة النواحى والزوايا .

أولاً : إن شخصية أمين شخصية فنية أدبية ، ترى الجمال حيث هو ، وقد أعطيت أن تجسده فى قوالب الكلمة المجلوّة والخطوط الرشيقة، فتأدُّب أمين هو من نتائج ولعه بمعرفة ذاته . تأدب كهذا يحتاج إلى أوسع الطالعات ، وأكثر الدراسات ، وأدق الأبحاث وأعمق البيان .

---

(١) «أمين الريحانى بعد ربع قرن» ص ٨٥ – ٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٦ – ١١٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤١ – ١٤٢ .

ثانيًا : إن شخصية أمين هى شخصية عنصرية . هنا تبرز أبعاد الزمان الثلاثة ، تبرز وحدة التاريخ فى وجودية صارمة . وعليه فأمين سامى آى أى أشورى إيرانى يونانى عربى ، ينبغى لأمين إذن ، الطامح إلى معرفة ذاته ، أن يدرك تلك المواضى فى بطون التاريخ . فكانت مؤلفاته التاريخية التى هى أثمن ما صنّف عن الجزيرة العربية .

ثالثًا : إن شخصية أمين هى شخصية سياسية . هنا الدافع الذى حداه على النضال فى سبيل المجتمع ، " فالمرء الذى لا يكترث لأمور حكومته يعدّ خاملاً »[1] " ، لذا كافح من أجل لبنان ، ورفع صوته من أجل عروبة صحيحة ، وكان من الرعيل الأول الذى كشف الغطاء عن مرامى الصهيونية . جمع فيه أرستقراطية الشرق وديمقراطية الغرب [2] » .

وقال الدكتور جميل جبر :

« أما الحرية التى سعى إليها فهى فعلية أكثر منها لفظية إذ ما ينفع السجين أن يبدّل بثوبه المخطط ثوب الرجال الأحرار إذا ظل راسفًا فى سلاسل الحديد مسجونًا فى غرفته المظلمة ، أو إذا ظلّ يشتغل مع بنيه الصغار تحت الأرض محرومًا من الهواء النقى والنور وجمال الفضاء . أى أنه لا يؤمن بحرية لا تهيأ لها الطاقة الكافية لتحققها ، لا تتاح لها العدالة الاجتماعية فى مفهومها العميق »[3] .

ومن كلمة الأستاذ عبد الله حشيمى :

« فى سبيل أدبٍ سليم ، ونهضة عربية جامعة ، وإخاء إنسانىّ كريم ، ناضل الأمين طوال أيام عمره . بكل طاقاته ومواهبه ناضل »[4] .

ومسك ختام ما تقدم أنقل ما جاء به أدب معالى وزير التربية الأستاذ سليمان الزين ، وأعقبه بكلمة من كلمة الدكتور فؤاد أفرام البستانى : « يا صاحب

---

(١) راجع « المختارات » نقد الثورة الفرنسية .

(٢) المصدر نفسه ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٥ .

الانطلاقات الإنسانية والإنشراقات الصوفية والفلسفية .

يا صاحب الشعر المنثور . . . أيها الأديب الذى ثار على الأدب الباكى أيها الفنان الذى ثار على التقاليد . . . يا ابن لبنان ، أنت لست للبنان وحده ، أنت لدنيا العرب ، أنت لدنيا الفكر ، أنت للإنسانية ، فاخلد مع الخالدين» [١] .

ومن كلمة الدكتور فؤاد إفرام البستانى رئيس الجامعة اللبنانية :

« بيد أنه رأى أن أصل البلاء تجاهل رجالات البلاد بعضهم البعض الآخر ، وتنابذهم وتعاديهم ، وأيقن أن الخطابة أو الكتابة أقل جدوى من الزيارة والضيافة والعلاقات الشخصية ، فاستكمل معداته وحزم حقائبه ، وغايته القصوى تعريف ملوك العرب بعضهم إلى بعض وتمهيد السبيل إلى التفاهم المؤسس على العلم ، والخبر اليقين ، ولا علم ولا يقين إلا بتبديد الأوهام ، وإنارة الأذهان على حد قوله . فكانت تلك الرحلة الأثيرة فى تاريخ العرب وكان ذاك الكتاب الباقى فى تاريخ أدب العرب» [٢] .

هذا ما وقع عليه الاختيار أثبته فى دراستى هذه ، والأقوال بالأديب الكبير والرحالة الجوّاب الصادق ، أمين الريحانى كثيرة يضيق بنا المقام إن أنا عمدت إلى ما نشرته الجرائد والمجلات لصفوة الأدباء فاقتصرت على ما تقدم ، والقول العدل فيه هى مؤلفاته التى تركها لنا لتنطق بأدبه الخالد وقلبه الكبير الطاهر المتواضع وحبه الشامل وإنسانيته الفذة وعبقريته المجنّحة ، وأنا بلسان الشاعر المبداع شكر الله الجر أردّد :

نقلت للغرب من تاريخها [٣] سوراً ... تضاءلت عندها الآيات والسورُ
فكنت أعظم من نادوا ومن خطبوا ... ومن أذاعوا لها مجداً ومن نشروا
وكنت أبلغ من غنّى مآثرها ... وكنت أصدق من عن حقها حسروا
وكنت مرقم نـــارٍ فى صحائفهـــا ... تطاير النور من شِقّيه والشررُ [٤]

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٣) الضمير راجع إلى الأمة العربية .
(٤) من قصيدة مثبتة فى كتاب « أمين الريحانى بعد مرور ربع قرن » ص ١٩٨ .